قصة قصيرة

عُشّ الوقواق...

عبد الخالق الركابي

هل تظنون أن بحة صوتي هذه نتيجة مرض؟ أبداً... فانا لله الحمد لا أشكو من علة ما. كما وأنني لا أدخن سوى القليل... سيكارتين أو ثلاثاً... وعلى أبعد تقدير أربع سكائر لا أكثر، وحتى هذه السكائر الأربع لا أدخنها إلا عندما يعتكر مزاجي. ولماذا يعتكر؟ لكم الحق بسؤالكم هذا، فالله سبحانه وتعالى ما ابتلاكم بأخ مثل أخي (عذاب) عذبه الله في الدنيا والآخرة، فبسببه لا أكف عن الصراخ منذ شروق الشمس حتى غروبها... في البيت وسط طلبات العائلة التي يلاحقونني بها أينما تحركت... وفي الحقل حيث أمضغ التراب مع لقمة الخبز... وحتى على تخت المقهى هذا. وتأكدوا بأن موتي سيكون على يديه، فذات صباح جميل سينتبهون لتأخري في فراشي... فيأتون إلي ويهزونني... (عواد) استيقظ فاللحم قد نفد... (عواد) انهض فالابقار تكاد تموت جوعاً... (عواد) قم لقد تأخرت عن الذهاب إلى الحقل. لكن (عواد) لن يتحرك فقد مات واستراح منهم إلى الأبد، يومها لن ينفعهم البكاء والعويل. ولتشهدوا انتم يا جماعة الخير بأن أخي (عذاب) هو سبب موتي الوحيد، فها هو يفضحنا على امتداد القرية من جديد ويهرب من وحدته ليتحصن كالعادة بدغل الخندق. سبع سنوات مرت على خدمته العسكرية، وجماعته الذين جُنّدوا معه سُرّحوا منذ أعوام وعادوا إلى القرية فتزوجوا وملأوا بيوتهم أطفالاً وثلموا الأرض بمحاريثهم لعدة مواسم، سوى (عذاب) الذي ما يكاد يلتحق بوحدته لأشهر حتى يهرب لعام!.. لقد أفسدته أمي بتدليلها له لأنه (آخر النصيب) وجعلته دخواً مثل عشب ربيعي. وأبي بدوره ساهم بإفساده... تصوروا رغم تخطّيه السبعين لم أسمع صوته في يوم من الأيام يعلو في البيت. وبأستسلام غريب يراقب أمي دون أن يحاول زجرها أو منعها من التورط بمشاداتها اليومية مع الجيران، تلك المشادات التي سرعان ما تتحول إلى معارك حقيقية تتخللها عمليات اغارة خاطفة مصحوبة بالصفعات وشد الظفائر وخمش الخدود وتطاير (الفوط) في الهواء. وان طلبت منه التدخل ووضع حد لتلك الفضائح نظر إلي بصمت ململماً باصابعه النحيلة المتجسّئة ورق السكائر والزناد وكيس التبغ ليدخل الحجرة وينام من فوره. في هذه الحالة لمن التجيء يا جماعة الخير؟ فإخوتي الخمسة أشبه بطائر الوقواق الذي يعمد إلى سرقة بيض طائر آخر ليضع بيضه هو في عشّه. وبيتي انا بمثابة ذلك العش المباح: فكل ما يهم أخي (جبار) لا يتعدى الإختلاء بامرأته الضامرة كالزنبور و... لعنة الله على الشيطان... ولا تمر سوى تسعة أشهر حتى تلد له طفلاً آخر. وعلى هذا المنوال تتابع ابناؤه الثلاثة ليثقلوا عنق عمهم المسكين (عواد)- أنا الذي تعاديني الدنيا بأجمعها- وأخي (جاسم) مذ اخضر شاربه واكتشف ان القرية ليست كل شيء في الدنيا فهناك مدن أخرى أكبر وأجمل، حتى استولى على بقايا حلي أمي التي جمعتها في زمن الليرة والقران والبيشلغ، وسافر بها إلى بغداد ليغيب مدة عام كامل عاد بعدها لعش الوقواق بيتي بأسمال ممزقة ولحية مسترسلة كلحية الدراويش- وبطبيعة الحال استحسنت أمي وفادته، بل وبللت كتفه بالدموع وهي تتنسم رائحته- ويا لها من رائحة!- دون أن يخطر لها أن تسأله عن مصير حليها التي سبق لها وأن رفضت أن تزهنها عندما تزوجت انا (عواد)- حصان العائلة المنبوذ- وما مرت سوى بضعة أيام حتى استولى (جاسم) هذه المرة على حلي أختي وسافر بها من جديد. ومنذ ذلك اليوم ما أن يعون من احدى رحلاته المتعاقبة بأسمال ممزقة ولحية مسترسلة كلحية الدراويش حتى يتردد تحت سقف المنزل صديد أغطية الصناديق وهي تطبق وتثقل بالأقفال، وأبواب الحجرات توصد، وأعين الجميع تترصده انى سار. وأخي (كرم) أبعد الناس عن الجود والكرم لشدة بخله يكاد يمنع أطفاله عن التغوط خوفاً من أن يجوعوا

سريعاً. وأخي (محسن) منذ التحاقه بالخدمة العسكرية قبل سنوات بعيدة لم يعد إلى القرية ولو لمدة واحدة لا في الأعراس ولا في المآتم. لكنه لا ينسى ان يبعث لي برسائله من فترة لأخرىٰ طالباً مني المزيد من النقود- كأنني أسكّها في بيتي!- منوهاً بأنه يطلب بذلك حقاً مشروعاً، فعند موت الوالد اطال الله في عمره- هكذا يقول في رسائله دون حياء- فله نصيب من الإرث! وقبل ثلاث سنوات التقاه صديق من القرية في أحد شوارع بغداد وهو بملابس عسكرية واحدىٰ ذراعيه مضمدة. وعندما سأله الصديق عن سر ذلك الضماد أخبره (محسن) بأنه أصيب بشظية قنبلة في إحدىٰ المعارك. وبطبيعة الحال لم يخبره باسم المعركة الموهومة تلك ومتىٰ وقعت لأننا جميعاً نعرف بأنه لم تقع ثمة معارك في تلك الفترة علىٰ الإطلاق. وقبل أن يستفيق الصديق من دهشته أسرّ (محسن) في أذنه وهو يومئ بيده الملفوفة بالضماد لجهة ما من انه في سبيله للقيام بمهمة خطيرة!... ومرة أخرىٰ لم يوضح نوع مهمته تلك، فقد فوجئ الصديق به يقفز علىٰ ظهر شاحنة عسكرية صادف أن مرّت في تلك اللحظة، وأحاط فمه بقبعته التي عملها مثل بوق صاح من خلاله:

- كيف هي أحوال أمي وأبي؟

وغابت به الشاحنة. لكن (كيف هي أحوال أمي وأبي) هذه جعلت الوالدة تذرف ملء قربة دمعاً وامتنعت عن تناول الطعام لثلاثة أيام!

استحلفكم بالله يا جماعة الخير الا تكفي واحدة من هذه المشاكل لكي تنغص عليكم حياتكم؟ ألا تكفي؟... رحم الله أمواتكم... لكن يبدو ان أخي (عذاب) ليس من رأيكم، فهو يعتقد بأن الله لم يخلقه إلا لأجل غاية واحدة هي تعذيبنا فقط، وخير دليل علىٰ ذلك تسميته بهذا الاسم. ورغم حب أمي الشديد له لكن ذلك لا يمنعها من الاعتراف بأنه وهو جنين في بطنها لم يكن يهدأ أبداً. ولم يتركها تهنأ بنوم مريح ولو لليلة واحدة فشغله الشاغل كان الإمعان بالرفس كأنه في عجلة من أمره لإنجاز المهمة الموكولة إليه. وحتىٰ وحامها وهي حامل به كان غريباً، فقد توحّمت برماد السكائر!! وكانت تدخن بشراهة وتزدرد الرماد خلسة إلىٰ أن ضبطها أبي ومنعها عن ذلك وضيق الخناق حولها، فكانت النتيجة ان جاء (عذاب) إلىٰ الدنيا ووحمة حمراء تمتد علىٰ خده الأيمن.

منذ طفولته وهو طائر وقواق حقيقي، فلفرط الدلال الذي أحيط به لم يكن يتورع عن طلب أمور صعبة المنال بل ومستحيلة: ففي منتصف إحدىٰ الليالي أجفل من نومه والخرط بالبكاء. ووسط نشيجه الملهوف أعلن عن رغبته بأكل (الجمّار!) وتنغّصت حياة العائلة فقد استيقظنا بأجمعنا وحاولنا بوسائل شتىٰ إقناعه بتأجيل طلبه ذاك لصباح الغد. لكن دون جدوىٰ، مما اضطر أبي- الذي كان يحبه كعادته بصمت- إلىٰ التوجّه للبستان مردفاً علىٰ كتفيه (عذاب) الذي عقد ذراعيه الصغيرتين حول جبينه وثمة شهقات يطلقها من وقت لآخر وانتفاضات تنتاب جسده تدل علىٰ بقية بكاء لم يستطع إفراغها بعد. ورغم ذلك شرع يضرب بقدميه صدر أبي وهو يحثه علىٰ السير سريعاً صارخاً به: (ديخ!) وكان علي- أنا المسكين (عواد)- حمل الفانوس أمامهما متعثراً بين خطوة وأخرىٰ من فرط النعاس. وفي البستان وقع اختيار (عذاب) علىٰ نخلة من صنف (الزبير) النادر. وعبثاً حاول أبي ثنيه عن اختياره ذاك، فقد ازداد اصراراً ولم يهدأ إلا بعدما غرز اسنانه الدقيقة في لحمة (الجمار) الناصعة البياض. بعدها مال برأسه جانباً واستغرق في نوم عميق. وفي احدىٰ ليالي الصيف كان يضطجع بين أبي وأمي في الفناء الذي يتوسط حجرات المنزل. وكان قد أجبر أبي علىٰ أن يسرد له عشرات القصص والحكايات حتىٰ أثقل النعاس أجفانه. وفجأة فتح عينيه علىٰ سعتهما وأمعن النظر في القمر الذي كان قد توسط السماء. فتوجس أبي شراً. وكما توقع: مدّ (عذاب) سبابته الصغيرة نحو السماء معلناً بأنه يريد القمر!! ومرة أخرىٰ تنغّص نوم العائلة إذ كيف نأتيه بالقمر؟ وحاولنا إقناعه بالعدول عن طلبه المستحيل ذاك. لكنه فغر فمه فانكمشت الوحمة الحمراء إلىٰ أصغر حجم. وانطلق يجأر بصوت دونه هدير مطحنة. وسال مخاطه مكوناً حول فمه الفاغر هالة كانت تلتمع علىٰ ضوء القمر الذي لا بدّ له من الحصول عليه! وبطبيعة الحال كان علي أنا- (عواد) حلاّل المشاكل- إيجاد الحل المناسب لهذه المعضلة. فهمست في أذن أبي الذي هز رأسه موافقاً. وجئت بطاسة مملوءة ماء جعلتُ صورة القمر تنعكس علىٰ صفحته. وبصوت حاقد طلبت من (عذاب) أن يتفضّل ويتناول القمر. وما أن غمس أصابعه وترجرج الماء وشرع القرص اللماع بالاهتزاز حتىٰ أفرغت غيظي بأن صرخت به طالباً منه الإسراع بالإمساك به قبل أن يطير. فغطس يده لتقع أصابعه علىٰ خوخة كنت قد أسقطتها في الطاسة خفية. عندها طوّقناه من جميع الجهات مانعين إيّاه النظر للأعلىٰ بعدما أصبح القمر في حوزته.

ورغم حرارة تلك الليلة فقد اضطررنا للنوم في إحدى الحجرات خوفاً من أن يتطلع (عذاب) إلىٰ السماء فيكتشف الخدعة. ووسط ظلام الحجرة الدامس سمعنا صرير أسنانه وهو يزدرد القمر، فحمدنا الله علىٰ ذلك. لكنه فجأة عاد إلىٰ البكاء. وعندما سأله أبي عن الأمر هذه المرة أجابه بأنه لو كان ما أكله هو القمر فما هو هذا الشيء إذن؟ وناوله نواة

الخوخة. وببساطة أجابه أبي بأنها نواة للقمر إن زرعها ولدت قمراً جديداً سينير لياليا بعدما ازدرد القمر القديم. وصباح اليوم التالي سارع (عذاب) بزرع النواة في إحدى زوايا الفناء. وفي الليل أدرك صدق قول أبي فقد رأى القمر الجديد يشعشع بضوئه المخضوض!

تلك هي مصائب (عذاب) وهو صغير، أما ما الذي حدث بعدما كبر ودخل المدرسة و ... أو هوه... ذلك حديث طويل لا نهاية له... المهم ان تعلموا انه كان (يسقط) في كلّ صف لسنة أو اثنتين إلى أن شملته الخدمة العسكرية. يومها حمدت الله وقلتُ لنفسي: ارتحت أخيراً يا (عواد) فالجندية ستعلم أخاك كيف يصبح رجلاً.

في تلك الفترة ذاتها، بعد مرور شهر على التحاق (عذاب) بالخدمة العسكرية، انتبهنا لذلك المرض الغريب الذي أصاب الدجاجات في القرية. نعم؟ ما علاقة ذلك بمصائب (عذاب)؟ صبراً... صبراً فالله مع الصابرين، فهل يجوز أن أبدأ الحكاية من نهايتها؟ هل يجوز؟.. رحم الله أمك وأباك. نعود لحكايتنا يا جماعة: في أول الأمر بدت المسألة وكأن ثمة مرضاً غامضاً أصاب الدجاجات أدى بها إلى الشحة في إنتاج البيض. غير أن نسوتنا نحن الفلاحين خبيرات بمثل هذه الأمور، فلمسة واحدة من أصابعهن لمؤخرة دجاجة كفيلة بإظهار انها قد باضت منذ فترة قريبة، ولكن أين البيض؟ تلك هي المشكلة الأولى. وعندما شرعت الدجاجات ذاتها بالاختفاء أدركنا بوجود دخيل في المنطقة. لكن الغريب ان تلك السرقات كانت تحدث بغموض تام دون سماع نقيق دجاجة أو نباح كلب أو ترك أثر اللهم إلا القليل من الريش يتناثر باتجاه الغرب. وذلك كان الدليل الوحيد على كون السارق المجهول يعيش في غابات النخيل. لكن من هو؟ وهل هو غريب عن منطقتنا؟ في هذه الحالة لم لا تنبح الكلاب؟ إذن هو من أبناء المنطقة. وهل يعقل ذلك؟ هل يوجد ثمة من يسرق أهله؟ لا أطيل عليكم فما مرت أيام حتى شوهد جنديان من الانضباط العسكري يتجولان وسط الحقول وقبعتاهما الحمراوان تشاهدان من بعيد، وقد عقد كل منهما يديه خلف ظهره ممسكاً بعصا صقيلة يهزها بإهمال، وعلى الجانب الأيمن تدلى مسدس بقراب أبيض. في النهاية ولج جنديا الانضباط بيت المختار. وما مرت سوى لحظات حتى انتشر الخبر في القرية من أن (عذاب) هرب من وحدته، وذلك ما كان قلبي يحدثني به- انا (عواد) الذي أتشمم أخباره من بُعد فرسخ!.

في البيت استقبل الخبر بأشكال متناقضة: فأبي العجوز تحصن بصمته المعهود ولم يطرأ على ملامحه أو تصرفاته أي تغيير اللهم إلا أنه أفرط في التدخين لدرجة انه انهمك ليلاً بسعال مؤلم أطار النعاس عن أعيننا جميعاً. أما أمي فما أن سمعت بالخبر حتى شرعت دموعها بالجريان. ومسحت أنفها عشرات المرات حادجة بين لحظة وأخرى زوجها الصامت بنظرات إتهام وتأنيب لكونه لم ينجدها في محنتها وترك «آخر النصيب» عرضة للجوع والمرض. ولم تَنْس ان تتحبّب لكنّتها- امرأتي انا المغضوب عليه (عواد)- فاختطفت الطفل الصغير من بين يديها بحجة انه انهك أمه المسكينة والأولى به أن يتعب جدته بعض الشيء. وفي النهاية رسمت على شفتيها الرخوتين إبتسامة ذليلة، راجية كنّتها العزيزة ألاّ تنسى إبقاء عشاء (عذاب)، ساخناً، فقد يمرّ عليها ليلاً ليقبل يدي أمه الحنون. ذكرت ذلك وانخرطت بالبكاء. واعترف لكم يا جماعة بأنني وجدت مثل هذا الخبرَ فرصة نادرة لي لأثأر لغمط حقوقي طوال هذه السنوات التي مرت فأرعدت وأزبدت وجلت بعيني في محجريها مظهراً لوالديّ- لأمي بشكل خاص- كيف ان الدلال أفسد هذا (الجرو الصغير) وكيف انني أنا (عواد) قد تحملت العناء والشقاء مذ كنت بهذا العمر- وربتُ على رأس أحد أطفالي- مذ هذا العمر وأنا أشبه بمكوك الحائك... قدم هنا... وقدم هناك... ويد في الشرق وأخرى في الغرب... لدرجة أنني نسيت نفسي وضحيت بمستقبلي فلم استطع الحصول على الشهادة الابتدائية إلا (بطلعان الروح)... والنتيجة؟ زأرت بكلمة (النتيجة) بصوت مدوٍ تردد صداه بين حجرات المنزل... بل وعبر الغابات القريبة. لقد كانت لحظة لا تنسى فالصمت ران على الجميع وأحتبسوا أنفاسهم في صدورهم اعترافاً بسطوتي أنا (عواد)- معيل العائلة الوحيد- النتيجة اننا أصبحنا مضغة بأفواه الجميع بعدما جبن (عذاب) وفضحنا بهربه من الجيش، هذا الهرب الذي تأكد بشكل حاسم عندما شوهد عمود دخان يتلوى صاعداً من قلب دغل الخندق. كما وأكد بعض الأطفال أنهم لمحوا خطفاً، عند غروب الشمس، فتى بوجه ملتح يمرق سريعاً ليختفي وسط الأدغال حاملاً تحت إبطه شيئاً لم يعرفوا ما هو بالضبط لكن المهم أن الريش كان يتطاير منه... وكانت هناك أمعاء طويلة تتلوى خلفه منسحبة على الأرض كالثعبان!... وبطبيعة الحال صدقت القسم الأول من الحكاية، لكنني أغرقت في الضحك وأنا أسمع القسم الثاني الذي يتحدث عن الأمعاء والثعبان ففركت أذن أقرب صبي لي حتى جعلتها تتورد كالبنجر لأن من طبع الأطفال المبالغة بكل شيء!.

واعترف لكم بأنني في البداية لم استطع عمل أي شيء سوى إحراق دمي بتدخين تلك السكائر الأربع وبث همومي حتى للحجر الأصم. وبقي (عذاب) طليقاً بين الأدغال لا يشاهد إلا

لماماً وبشكل خاطف: كأن يلمح أحد الأطفال منخريه وهو يطل بها من وراء جذع شجرة متشمماً الهواء. أو كأن ترتعد صبية على الشريعة وهي تفاجأ بعينيه تلتمعان من بين دغل صفصاف. أو كأن يحفل رجل عجوز يقضي حاجته قرب النهر فينتصب مذعوراً على وقع خطى سريعة مرقت بالقرب منه مخلفة نثار ريش يتطاير في الهواء الساكن لبعض الوقت ليستقر في النهاية على الأرض بكل هدوء. ومرت فترة أصبح في الإمكان ترصد مواضع تحركات (عذاب) المريبة وذلك بإرهاف السمع: فها هي صرخات (زهرة) تلعلع لترتفع لعنان السماء نادبة سوء حظ أيتامها لأن دجاجاتها لوحدها عرضة للسرقة. وذلك هو صوت (هضيمة)- تلك العانس التي مر عليها عشرون سنة وهي تحلم كل ليلة باقتراب موعد زواجها- يسمع وسط حشد من نساء القرية وهي تفص عليهن آخر أحلامها والذي رأت فيه دجاجتيها اللتين سرقتا منها قبل ثلاثة أيام، وذلك دليل واضح على قرب زواجها!... نعم... فالدجاجتان هما الهدية التي سيقدمها عريسها لها! وتلك هي (أم صالح) وفوطتها تطر من خلفها تعد بطريقتها الخرقاء المرتكبة دجاجاتها فتكتشف انها زادت واحدة!.. وبعدما تطرف بعينيها الصغيرتين بحيرة تعود وتعدّها للمرة الثانية فتفغر فمها ذهولاً لأنها تراها قد زادت اثنتين!.. لا بل ثلاثاً!.. وفي النهاية لا بد لها من الاستعانة بابنتها (سعاد) التي تكتشف أن ثمة دجاجة قد سرقت منها!

وفي الحقيقة أن نجاح (عذاب) بسرقاته تلك وعدم ضبطه ولو لمرة واحدة أثار دهشتي. كما وان قصة تلك الأمعاء التي تزحف خلفه كالثعبان شحذت خيالي. وبعدما سرحت بأفكاري لبعض الوقت ودخنت سيكارة استطعت- أنا (عواد) الذي لا تخفى عليه خافية- اكتشاف لغز سرقاته الغامضة تلك، فما أنه لا يعقل ان يقتصر طعام عذاب على الفواكه المتوفرة في الساتين فلا بد له إذن من البحث عما يقتات عليه. وما الذي يتوفر عادة في القرى؟ البيض والدجاج. أما البيض فسرقته هنة قياساً لسرقة الدجاج. لكن لا يمكن الاستمرار بازدراد البيض لفترة طويلة لأنه في هذه الحالة... حسناً هناك الإمساك الذي سيدك الأمعاء! أما الدجاج فلا شك ان (عذاب) يعرف بحكم التجربة ان هذا الكائن التافه يمتلك سلاحاً ماضياً يشهره في وجه كل من يحاول سرقته وهو النقنقة بإيقاع سريع تتخللها صرخات مبالغ بها تلفت الانتباه. والذي يهم (عذاب) ان تتم السرقة بصمت تام، فكيف السبيل لذلك؟

سأقول لكم، في البداية يكون قد تزود بشريط من أمعاء شاة أو معزاة. بعدها يتم اختبار الوقت المناسب لتنفيذ العملية. ولا شك انه يفضل أن يكون ذلك قبل شروق الشمس حيث النوم يثقل أعين الجميع، أو بعد غروبها عندما تخلو الطرقات من المارة. ومن المؤكد انه سبق التنفيذ بعملية رصد سريعة قام بها قبل يوم أو اثنين وتأكّد من جميع المداخل والمخارج والمواضع التي يكمن فيها الخطر. وهكذا يتسلل (عذاب) بخفة متناهية في ذلك الاتجاه. وهنا تواجهه أولى العقبات وهي محاولة كسب ود الكلاب. وبما أنه ليس غريباً عن منطقتنا فالعملية لا تقتضيه أكثر من إطلاق صفير خافت. ولا بأس من قذف عظمة سبق وان احتفظ بها في جيبه. عندها تنسجم الكلاب باتباع طريقتها المعهودة من هز ذيل وتشمم هواء وازدراد ما أهدي لها ومن ثم العودة إلى الاستلقاء ودس الأنف المدبب بين طيات الذنب الكث. وبذلك يكون (عذاب) قد قام بخطوة هامة جداً إلى الأمام. وبقيت الآن الخطوة التالية وهي الأصعب والأدق تنفيذاً، يكوّر الأمعاء في يده، وبهدوء وحذر خلف ثعلب ملتح- لا شك ان لحيته نمت وهو يعيش في الأدغال- يقترب من سرب الدجاج. وبلامبالاة أصيلة لا أثر فيها للافتعال يدع أحد طرفي الأمعاء ينزلق من يده ليستقر على الأرض. وبنفس الهدوء والحذر السابقين ينسحب بعيداً- حسب المسافة التي يسمح بها طول الأمعاء- ولأنني أعرف مبلغ خبثه فمن المؤكد انه يطلق صفيراً خافتاً ويترنم بأغنية ما في محاولة لئيمة لخداع ضحيته. وبما أن الدجاج- كما قلت من قبل- كائن غبي وتافه جبل على الجشع فإن إحدى الدجاجات سرعان ما تعقف برأسها جانباً قاذفة طرف الأمعاء المستقر بالقرب منها بنظرة غير مصدقة. وبغتة تصفق بجناحيها و .. قت.. قت.. قت... تغير على طرف الأمعاء وتبتلعه دون تردد. عندها تنتهي لامبالاة (عذاب)، فيتحول من ثعلب ملتح إلى ذئب ذي وحمة حمراء تكون في ذروة توردها لحظتئذ و... بوق... ينفخ في طرف الأمعاء الذي في يده و... قيق... تطلق الدجاجة صرخة مخنوقة تجمد على أثرها في موضعها ذاهلة بعدما انتفخت الأمعاء في حلقها ومنعتها عن الحركة. وبضربة خاطفة يغير (عذاب) على ضحيته ويركنها تحت إبطه. والعملية بعد ذلك بسيطة، فبعدما تطرف الكلاب بأجفانها ببلادة وتغرغر بهرير مكتوم تعود لتواصل النوم على أثر صفير آخر يطلقه (عذاب) الذي كل ما عليه الآن هو أن يلوي عنق الدجاجة فينتهي كل شيء ولا يبقى سوى قليل من الريش يتتبع سيره نحو الغابات وشريط أمعاء يزحف خلفه كالثعبان!

ولكن هل تتصورون أنني تركته ينهأ بسرقاته تلك إلى الأبد؟ ذلك ما لا أجيب عليه بنفسي وبإمكانكم ان تسألوا (شهاب) الذي يعمل ناطوراً في بستان يحاذي دغل الخندق. حسناً... لقد قرر (شهاب) مساعدتي في القيام بغارة خاطفة لإلقاء القبض على ذلك اللص الأفاق. والحقيقة أن مساعدته لي لم تكن لوجه الله بل لأن محتويات كوخه القليلة كانت عرضة

لسطو (عذاب): ففي إحدى الليالي سرق علبة الشاي والسكر. وفي ليلة أخرى سرق كيس تبغه. كما واستولى على مدية رائعة ذات نابض ما أن يضغط عليه حتى يقفز النصل الفولاذي المرهف كأنما ركبه الجن. بل وسرق (عذاب) (التبلية) التي يستعملها (شهاب) لصعود النخيل!... وقد ملأ هذا العمل الدنيء (شهاب) حنقاً فتورد وجهه الكروي الممتلئ، وبصوت متهدج من فرط التأثر أعلن أمامي أنه لو كان (عذاب) بحاجة لحبل يشنق به نفسه لكان قد أعطاه إياه بكل ممنونية. أما أن يسرق (التبلية) التي هي مصدر رزقه... ولم يستطع الناطور المسكين الاسترسال في كلامه. وفي الحقيقة أن صمته ذاك كان أبلغ خاتمة. لكن وقاحة (عذاب) بلغت الذروة عندما حاول الاستيلاء على بندقية (شهاب) البرنو النادرة التي يعزها أكثر من روحه، لكن الله ستر وانتبه (شهاب) في اللحظة الأخيرة على وقع الخطى الثعلبية فأجفل من نومه وصرخ به فولى الأدبار، لذا قرر (شهاب) مساعدتي من تلقاء ذاته لأجل الإمساك بذلك اللص الذي لا يتورع حتى عن سرقة (التبليات)!

في منتصف إحدى الليالي قمنا بغارة مفاجئة على موضع معين سبق لـ(شهاب) أن ترصد فيه (عذاب) أكثر من مرّة. ولفترة تقارب نصف الساعة تراقصت ظلال النخيل والأشجار من حولنا على ضوء بطاريتينا. واصطفقت عشرات الطيور بأجنحتها وهي تمرق فزعة من أعشاشها لترتطم بالأغصان المتشابكة. لكن مع الأسف كانت النتيجة الوحيدة التي انتهينا إليها هي أننا لم نقع سوى على لبادة بالإضافة لوسادة وبطانية صوفية. والغريب أنني اكتشفت أن تلك الأشياء كانت من ممتلكاتي انا ولا شك أنها سلبت من بيتي! أما كيف وصلت لـ(عذاب)؟ فذلك ما لم أفكر به طويلاً: إنها هي... لا شك أن أمي هي التي أعطته هذه الأشياء خفية! ولأول مرة في حياتي أرسلت أقذع الشتائم بحق أمي- أرسلتها في سري بطبيعة الحال- وبوجه صارم لا أثر فيه للتأثر أو الشفقة طويت تلك الأشياء وقذفتها على كتفي وعدت بها إلى البيت لأستقبل بصراخ أمي وعويلها كأنني حملت إليها (جنازة عذاب) لا فراشاً اغتصب من (حلالي)!!

قد تقولون إن (عذاب) سلم بجلده بعد تلك الغارة؟ لكنني اجيبكم بأنكم واهمون، فقد شددت الحصار حول الدغل، وجعلت كل فلاحي المنطقة عيوناً لي تترصده أينما تحرك فاضطر في النهاية إلى الالتحاق بوحدته، ولكن ليس لفترة طويلة فسرعان ما استغل إجازة منحت له وهرب ثانية. ولأنه سمع بقولي الذي كررته على سمع كل من التقيته من أنني سأكسر ساقيه إن تخطى عتبة بيتي، اتخذ طريقه نحو دغل الخندق كما تتخذ الحمير سبيلها تلقائياً إلى معالفها. وأصبح من المتعارف عليه طوال السنوات السبع التي مرت أنه كلما كثرت سرقات الدجاج في القرية وتلوى عمود دخان صاعداً من دغل الخندق وشوهدت قبعتان حمراوان تلوحان وسط خضرة الحقول وجنديان من الانضباط العسكري يتخذان طريقهما نحو بيت المختار، أصبح من المتعارف عليه أن يعلم الجميع أن (عذاب) قد هرب!

والآن... اسمحوا لي بايقاد سيكارتي الرابعة هذه... ها أنذا أشعر بالدوار فالدخان ينزل في صدري كالكبريت، ولكن ما العمل؟ فـ (عذاب) أحرق دمي وأورث حلقي هذه البحّة اللعينة. لقد نفد صبري بعدما تعدد هربه بهذا الشكل فصممت على تأديبه في آخر مرة مهما كلف الأمر. وأقسمت أمام الجميع انه لن يفلت من يدي هذه المرة سواء اختفى في باطن الأرض أو صعد إلى السماء السابعة!

وهكذا وضعت خطة محكمة، واستعنت بأغلب شباب القرية. وطوال نهار كامل مشطنا دغل الخندق شبراً شبراً حتى وقعنا على كوخ قصبي كان قد نصبه في أكثر المناطق كثافة. لحظتئذ صرفت على أسناني باصرار واقتحمت الكوخ ببندقية مشرعة وكلي عزم على الإمساك به ولو اقتضى الأمر قتل أحدنا. ولكن...

انظروا... كان قد غادر كوخه منذ أيام تاركاً لي هذه الورقة المجعدة التي يقول فيها إنه قرر الالتحاق بوحدته مفضلاً قرقعة المدافع على سماع ثرثرتي التي ألاحقه بها باستمرار، طالباً مني أن أكف عن تشبيه بيتي بعش الوقواق لأن هذا الطائر ليس له عش!

أتسمعون يا جماعة؟... ليس له عش!... انه يسخر مني- لكن ذلك لم يؤلمني قدر ألمي لقوله عني بأنني ثرثار... هل حقاً أنا ثرثار؟!

بغداد